

دمــوع الحـب في الشعر الأندلـسي

(عـصر الطـوائف)

د. بشــرى عـبـد عـطية
جامعة بغداد ـ كلية الزراعة

مُقَدِّمَة

لم يمر بالأدب العربي عصر من العصور لم يكن الحب فيه ينبوعاً من ينابيعه بدءاً من الشعر الجاهلي بصوره التقليدية، ولغته المتفننة، وتشبيهاته فقد كانت كل قصيدة من قصائده تقريباً تفتتح باسم حبيبة يتغنى باسمها أو وصف ديارها أو الوقوف لوداعها أو بكاء لفراقها.(١)

وقد امتاز المجتمع الأندلسي بطبيعته الاجتماعية المنفتحة على ثقافات،وأعراق وأجناس عدة، وبجمال بيئته ماوفرَّ جواً من رغد العيش للمحبين حين أسبغ عليهم نعمة التمتع بلحظات الأُنس مع أحبتهم،واللذة بقربهم فقد عرف الأندلسيون الحب وعاشوه بوجوه اختلفت باختلاف الظروف والمناسبات؛ فتارة نجد اللهو والعبث،وتارة نجد العفة في الحب(٢)، إلا أن واقع الحال لايضم بين طياته شوق المحبين ولذة اللقاء فحسب،إنما يحمل في جانبه الآخر حقيقة الحياة باستحالة الوصل، واستبدال الأحوال برحيل الأحبة، وتفرق شمل العشاق وسطوة التجافي فشبح الفراق لابد أن يحل بينهم لأسباب معروفة لهم حيناً، ومجهولة أحياناً أخرى؛من هنا فإن الشاعر الذي عُرف برقة الإحساس وعدم التحرج في التعبير عن مشاعره عند فراق أحبته عمد إلى البكاء وإراقة دمع العين وسيلة لإظهار تأثره، والكشف عن خبايا روحه؛فكما أن العين لا تكذب فإن الدموع لا تنافق فالبكاء تعبير إنساني صادق يلجأ إليه الشاعر لتأثيره وقوتـــه في التعبير عن المعاناة الإنسانية التي تختلج في نفسه وحيداً بعيداً عمن أحب،عندها يثبت البكاء وجوده كظاهرة إنسانية مثقلة بشحنات القلق والتوتر والإحباط ليعكس الواقع

(١) ينظر :المرأة في الشعر الجاهلي/١١٦.

(٢) ينظر: الحب في الأندلس/٢٩٣.

النفسي الحزين، ويمنح لغته ملامح التعبير الإنساني محولا إياها إلى أقسى اللغات وقعاً وتاثيراً.(١)

من هنا فإننا سنتناول الحديث عن دموع الشاعر المحب، ونرصد توجهه نحو توظيفها توظيفاً فنياً وموضوعياً فضلاً عن دورها في الكشف عن مشاعر الحب وعدها وسيلة يصل من خلالها إلى استثارة العواطف،وتحفيزها ومن ثم الفوز باستعطاف المحبوب، وذلك من خلال البواعث الآتية:

أولاً: وداع الأحبة:

من أولى أسباب البكاء، وأشد موجبات المدامع وداع الأحبة فموقف الوداع من((المواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم، وتذهب قوة كل ذي بصيرة، وتسكب عين كل جمود))(٢)، ومن العشاق من يبكي لتلمس الأخبار أو عند ظهور المعالم ومطالعة الرسوم؛ إلا أن أكثرهم حرقة ولوعة من تفيض دموعه عند موقف الفراق(٣)، فهذا الشاعر ابن حمديس يصور موقف وداع أحبته من بدايته بكل ما احتوى هذا الموقف المؤلم من تفاصيل وأحداث كان حضور الدمع فيه ضرورة موضوعية، ولازمة فنية حتى لم يتبقَ له من ذكرى أحبته إلا الدموع، ونيران الأضلع، فيقول:

ولما رأت طَير الفراق نَواعباً ... وقد همّ بالتوديعِ كلَّ مودعِ
شكت ما شكا المحزون من عزمةِ النوى ... فأبكت لها عيني غَزال مُروَعِ
ولم أرَ في خدٍّ يُزَرَّرُ قبلها ... من الغيدِ شهباً في غمامةِ برقع
وقد سفرت عن صفرة عبر الأسى ... لعيني بها عن وجد قلب مفجع
واقبلَ درُّ النحرِ فوق تريبها ... يُصافحه من خدها درُ أدمعِ

(١) ينظر: بواعث البكاء/١٣.
(٢) طوق الحمامة في الألفة والآلاف/٨٧.
(٣) ينظر:مدامع العشاق/١٤.

فيـــارب أن البـــينَ أضـــحتْ صـــروفه علــيَّ وما لي من معين فكـــن معـــي
على قُـــــربِ عـــذالي وبُـــــعدِ حبـــائبي وأمواهِ أجفاني ونيـــرانِ أضـــلعي.[1]

صور الشاعر موقف فراق الأحـــبة مشخصاً الدمـــع فيه بدور بارز فهو لم يكتفِ بذلك التشبيه المبتكر للدموع بالشهب في لمعانها، ووهجها وسرعتها وقد تجاوز لمعانها غمامة برقع المحبوبه، لكنه برع حين أضفى على الدمـــع سمة التشخيص فهو درٌّ أقبل من عينيها ليصافح درَّ نحرها،ويقابل دمـــوعه المتدفقة كالمياه وهو وصف مؤثر ومعبر في رسم صورة الموقف على الرغم من إيجازه،فأثبت بذلك أن اللفظ موضوع بإزاء المعنى فالشاعر تعامل مع مفردة الدمـــع ليس بوصفها لفظة معجمية تعبر عن مشاعر إنسانية فحسب، لكنه تعامل مع تراكيب وصـــور وظفت فيها هذه اللفظة فأكسبتها معاني جديدة، وخرجت بصور مبتكرة لطيفة لم تكن متوافرة لها من قبل وذلك ما يُخرج التجربة الشعورية إلى دائرة الوجود إذ ((لا وجود لمضمون عاطفي أو فكري إلا من خلال لغة تعبر عنه..))[2]،وبلغة مفعمة بالحركة والتوتر وبحزن يحتوي مفرداتها صور المعتمد بن عباد موقف وداع أحبته بقوله:

ولمـــا التـــقَينا لـــلوَدَاعِ غـــــُدَيَّةً وقد خَفقتْ في ساحة القصرِ رايـــاتُ
وقـــرِّبَت الجُرد العتاقُ، وصُفِّـــقت طُـــبولٌ، ولاحـــت للفراق علامـــاتُ
بكيـــنا دمـــاً؛ حتى كأن عيـــــوننا لجرى الدمـــوع الحمر منها جِراحَاتُ
وكنا نُرجِّى الأَوب بعد ثلاثـــة فكيفَ وقـــد طالـــت عليها زياداتُ.[3]

(١) ديوان ابن حمديس/٢٨٥.
(٢) مدخل إلى بنية اللغة الشعرية/٤٣.
(٣) ديوان المعتمد بن عباد/٤،وينظر:ديوان ابن خفاجة/٣٨٦.

نلاحظ أن الشاعر أدرك ضرورة حضور البكاء ومصاحبة الدمـــع له في هذا الموقف كون الدمـــع هو مصاحبة وجدانية،واستجابة انفعالية للتوتر والحزن،فاللقاء تحقق للفراق، وقرب الجرد حُفّ بعلامات الوداع ما جعل القــلوب تخفق كخفق الرايات يزيد من اضطرابهـــا وتوترها صدى الطبول عندئذ أثبت البـــكاء فاعليته ولزوميته في الصورة؛ ومنسجماً معها تحول الدمـــع إلى اللون الأحمر كأنه يسيل من جراح لا من عيـــون، فالأبيات بما ترسمه من صورة بصرية وسمعية جاءت واقعية صادقة في التعبير عن خوالج النفس والآمها عند الوداع.

ومن الشعراء من جعل احمرار خد محبوبته نتيجة لحرارة الدموع المنهمرة عند الوداع كما أن اسوداد شعر صدغيها من آثاره، وهو بعنايته بتوظيف اللون في تصويره، ودقة تشبيهه يبرز دور اللون في إثراء الصورة الشعرية من جهة وقيمته لدى الشاعر الأندلسي من جهة أخرى،كما انه في الوقت نفسه يجعل من صورة دمـــع محبوبته عند الوداع انعكاساً وتجسيداً لعبرته التي أضرمتها نار النوى،ويصمت عن وصف دموعه تاركاً لنا ميدان الخيال والإحساس ليبقى تساؤلنا؛إن كانت تلك دموع محبوبته فكيف حال دموعه هو ،يقول ابن خفاجة:

ورُبَّ غُرّة عَبرى قــد شــرقتْ بهـــا   في مَوقف للنّـــوَى اضــرَمُتهُ حُـــــرَقَا

تَخالُ ما احمرّ من خـــدّيهِ مُلتَهِبـــاً   بها،وما اسودّ من صُدغيهِ مُحترِقَـــا[1]

ويطالعنا الرحيل الذي يضع الشاعر وجهاً لوجـــه أمام الحقيقة المرة والتي يقف عاجزاً ليس فقط عن تغييرها بل حتى عن استيعابها فيجد ظلم الفراق ومرارته طريقه إلى قلبه مع يأس وحزن دائمين مبعثه الفراق؛وبهذا لايجد أمامه إلا الدمـــوع المنهمرة وسيلة للتعبير عن ذلك الهم والحزن ،ويتجلى ذلك في قول ابن زيدون:

---

(١) ديوان ابن خفاجة/٣٧٥،وينظر:ديوان ابن حمديس/١٩٠.

بْنــتُم وبنـــا فمـــا ابتَلّــتْ جوانِحُنـــا شَــوقاً إلــيكُم ولا جـــفتْ مآقِـــينا
نَكـــادُ حـــين تُنـــاجِيكمْ ضَمـــائرنا يَقضي عــلينا الأســى لــَولا تأسينا[1]

ويحول حزن الشاعر لفراق الحبيبة،واليأس من اللقاء الحياة إلى ألم دائم وإحساس بنار الحب والشوق تتأجج في قلبه لتحرق فؤاده؛ وتتعاظم معاناته حدَّ التبرم من الحياة، ومن حالة الحزن المتجدد في كل حين ولكون الشاعر العربي نمطاً انفعـــالياً تهزه المواقف وتؤثر فيه الأحداث والأقوال[2] فقد كان الشـــعر ولا زال النبض الموحي لحياة الإنسان العربي والمعبر عن الحالة النفسية،يكشف عن مكنونات نفسه مستعيناً بكل ما يوصل إحساسه إلى المتلقي من هنا كانت دمـــوع ابن السيد البطليوسي تشكو الفراق تارة، وتعلن عن مكنون نفسه من الضعف لتستعطف تارة أخرى كما عمد الشاعر إلى دفع المتلقي لمشاركته إحساس الفراق ولوعته من خلال توظيف الحوار الذي أضفى على النص بعداً تأثيرياً اشد لدى المتلقي ،فيـــقول:

مَرَتْ مُزنَ عَينيهِ غَداةَ تَحملوا عواصفُ ريحِ الشَّوق حتى تَصبَّبا
دمُوعٌ هتكنَ السّترَ عن مضمر الجوى وأبديْنَ من ســرِّ الهــوى ما تَغــَّيبا
خَليليَّ مَا لِى كلما لاحَ بــارقٌ تَذكــرتُ برقاً بالعقيق وزينـــبا
أُؤنِّسُ بالنَّائينَ نَــوْماً مشُــرَّداً وأُطمِــعُ بالثَّاوينَ قُــلباً مُعــذَّبــا
وَمنْ لي بردِّ الخِلِّ إذ جَدَّت النَّوى به وبوصلِ الحَــبلِ أنْ يــتقضَّبا
أفِي كُلِّ حينٍ أمترى غَربَ مُقلةٍ أبــى الوَخدُ إلا أن تَــجود فتغربا*
....
ولولا التهاب الشوق بين جوانحي لأَمرَعَ خدي بالدموعِ وأعشَبا.[3]

(١) ديوان ابن زيدون/٩.

(٢) ينظر:التحليل النفسي للذات العربية،أنماطها السلوكية والأسطورية/٨٨.

(٣) شعر ابن السيد البطليوسي/٤٩-٥٠،*أمتري:أستنزل،غرب مقلة:دمع مؤخرة العين،الوخد: السير السريع،فتغربا:أي تتورم من كثرة البكاء

يُظهر النص الدور الذي أداه الدمع في رسم صورة الحزن التي مثلت إحساس الشاعر بالضعف لرحيل أحبته عنه فلجأ إلى دمــوعه التي هتكت سرَّهواه، وأفشت مضمر جواه ليحملها مشاعره ويكشف بمقدرته قيمتها التعبيرية والجمالية من دون أن يغفل إسباغ الصبغة الأندلسية على تعبيره بتوظيف الطبيعة في سائر الأغراض الشعرية فتعابير(مزن عينيه، وعواصف ريح الشوق، وأمرع خدي بالدمــوع واعشب) أظهرت أن بعض الألفاظ تقود إلى معاني تحرك الوجدان ومنها الدمــوع هنا التي منحت النص وأسلوب الشاعر في القص تأثيراً أقوى في نفس المتلقي وأبرزت مقدرة الشاعر في اتكائه على مفردة الدمــع والإبداع من خلالها في تصوير معاناته.

وغالباً ما يكون الدمــع ممزوجاً بتلك المرارة الناتجة عن إحساس الشاعر بعجزه عن الصبر، ونشعر بزفرات العشق وحرارة الوجد نابعة من أعمــاق قلب مقسم بين قسوة وداع الحبيب،ومرارة العجز عن تحمل فراقه فيعلن الدمــع حالة ضعف حاضرة لحبيبة غائبة، يقول ابن الحداد:

يا غائبــاً،خَطراتُ القلــبِ مَحضُــرهُ ... الصَبــرُ بعــدك شــيءٌ لســتُ اقــدرهُ
تَركــتَ قلبــي وأشــواقِي تُــــفطرهُ ... ودَمــــع عينــــي وأحــــداقي تُحــــدرهُ
لو كنتَ تُبصر فــي تــدمير حالتنــا ... أذن لأشــفقتَ ممــا كنــتَ تبُصــرُهُ
فالــعينُ دونــك لا تَحلــى بلذَّتــــها ... والــــدهرُ بعــدَك لا يصـــفُو تَكــدُّرهُ
أخفي آشتياقي وما اطويهِ من أســف ... علــى المرَّيــةِ والأنفــاسُ تُظهــرهُ(١)

نلاحظ أن الشاعر أتخذ من أسلوب النداء لمحبوبته منفذاً للتعبير عن تلك المشاعر المؤلمة التي يمر بها، ويجسد بمناظرته لــها صراعه النفسي بين الاستسلام للفراق والرغبة الملحة في اللقاء

(١) ديوان ابن الحداد/٢٠٩.

والوصل بإطار من الشكوى الممزوجة باستعطاف المحبوبة من خلال عرض حاله، وما آل إليه عيشه وقد حقق ذلـك من خلال تناوب استعماله للأفعال الماضية والمضارعة في تصويره لمعاناته مما كشف عن احتواء حالة الحزن له فتجاوزت أفعاله الدلالة النحوية إلى دلالة شعرية تمنح النص روح الاستمرارية على الرغم من الدلالة الماضية للأفعال التي تعني زوال الحدث مع مضي الزمن؛إذ((ليس الزمان هو الصورة الوحيدة المرادة من الفعل،فان الفعل قد يدل على محض تمام الحدث)) (١).

ومن الشعراء من وجد في ذرف الدمـوع راحته النفسية،وتسكيناً لألمه فهي استجابة نوعية أو رد فعل أو أثراً من آثار صعوبة يواجهها الإنسان أو يتوقعها ولاسيما إذا كانت ذاتية(٢).من هنا كان لجوء الشاعر ابن الحداد لذرف الدمـوع أملاً منه في تسكين الآم هيجتها الذكرى ،فيقول:

أمَا إنهـا الأعـلامُ مـن هضَـباتها فكيفَ تكف العُـينُ عَـنْ عَبراتِهـا؟
ذَرانـي واذراءَ الـدموعِ لعـلـه يسكِّنُ ما قد هـاجَ مـن ذكراتهـا(٣)

ثانياً الشكوى:

فتحت الشكوى الباب للشاعر للبكاء وسكب الدمـوع،فاليأس من وصل المحبوبة والخشية من استحالة الاجتماع دفعته إلى العيش بين أمل راحل وألم مقيم فغدا دمعه لسان شكواه، ومعينه في وصف ما يقاسيه بعد الجفوة والصدود عله يجد الأذن الصاغية،والقلب الرؤوف

---

(١) الدلالة الزمنية في الجملة العربية/٤٦.

(٢) ينظر: أسس علم النفس العام/١٤٥.

(٣) ديوان ابن الحداد/١٦٢،وينظر:ديوان ابن حمديس/٢٩٣- ٢٩٥.

بعدما عانى من ((توجـــع الكآبة،وقلـــق الأشواق ولوعة الفـــراق))[1]، فيغدو دمعه شاهداً على شدة وجده ودليلا ًلوفائه، يقول ابن زيدون:

ألا ليتَ شِعري هلْ أصـــادِفُ خلـــوَةً لديك فأشكو بعــض مـــا أنـــا واجِـــدُ؟
رَعى اللهُ يوماً فيه أشـــكو صـــبابتي وأجفانُ عيـــني بالدمـــوعِ شـــواهدُ(٢)

نلاحظ أن الشاعر عمد إلى أسلوب سهل وألفاظ رقيقة وتكرار واضح للفظة الشكوى ليحقق شدة التأثير وسرعته فبدأ بـــ (ألا) الاستفتاحية مخرجاً إياها من دائرة الاستعمال اليومي المألوف إلى نطاق التعبير الشعري لتكون مع الدمـــع سبيلاً لإثراء تعبيره،وتسم نصه بالعفوية والمصداقية؛ كما أن توجع القلب يدفع الشاعر إلى الشكوى إلى المحبوب من دمـــوعه جاعلا ًمن تبادل أطراف الصورة سبيلاً إلى شدة التأثير ودليلاً على معاناته اذ عوضاً عن تميز الدمع لدى الشاعر كونه وسيلة لأبراز لوعته الى محبوبه والتقرب اليه بها تحول إلى الشكوى من دموعه إليه عله ينال بذلك رضاه ويجد صدى لشكواه، يقول ابن الحداد:

مَنْ لي بـــأنْ أشـــكُو إليـــكَ مَـــدامِعاً تهمي عليكَ وأضـــلُعاً بـــك تحتـــرق؟
فَتَـــرِقَّ لي يا من غَدا قلـــب اســـمه مُتَصَّحفاً ماضِـــدُّه ماضِـــي يَـــرق.(٣)

ويلجأ الإنسان إلى الشكوى عندما يشعر بالظلم والحرمان، وقد سلطت عاطفة الحزن أسهماً في أجساد بعض الشعراء فأصابت أكبادهم ،ووجهتهم نحو اعتماد نغم حزين ويأس من الحياة والصحبة ليكون الدمـــع الرفيق الأقرب،يقول ابن مارتين*:

كيف لي بعـــدكم بطبيـــب الهجـــوع وجفـــــوني مَملـــــوءَة بـــــدمُوعِي
كـــلُّ شـــيءٍ يئستُ مِـــــنه إذا مـــا بنـــــتم غيـــــر عَبْرَتـــــي وولـــــوعي

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب/ج ١/ ص ١٠١.

(٢) ديوان ابن زيدون/٤٦.

(٣) ديوان ابن الحداد/٢٣٩،وينظر:ديوان ديوان المعتمد بن عباد/٨

وَلَكَم قــد شــــكَوتُ مِمَّــا الاقــــي غيــر أنــي أشــكو لغيــرِ ســميعِ[1]

نلاحظ أنه على الرغم من غلبة الأسلوب الإنشائي إلا أن الشاعر كسر طوق جموده بتكراره وكسره للقافية؛فتكرار ألفاظ الحزن والشكوى لم يكن مجرد كشف عن الجانب النفسي الحزين للشاعر بل غدا ذا قيمة فنية في النص عندما وظف لتقوية المعنى، وتأكيد الشكوى وليكون أثره ابلغ في المتلقي وادعى إلى تحقيق الاستجابة فضلا عن حرف العين المكسور الذي أضفى على النص طابعاً مأساوياً.

والشكوى من ثم حاجة نفسية ملحة ارتبطت بالدمــوع يخفف الشاعر من خلالها من حزنه ، ويتقرب بدلالتها إلى محبه عله يرفع الحيف عنه لذا كان لابد من استحضاره لعلامات الهوى، فقد قيل:((إن أول علامات الهوى على ذي الأدب نحول الجسم، وطول السقم، واصفرار اللون...))[2]، وقد أضاف المعتمد بن عباد دليلا ً أشد تأثيرا ً تمثل في دمــوعه التي شبهها بالمطر الشديد حين وصفها بالهطول،والهطل هو دوام السيلان في سكون[3]،وبهذا التعبير تُستكمل صورة الشكوى، وتظهر براعة الشاعر في توظيف دلالة اللفظ بقوله:

من شــكَّ أنّــي هــائمٌ بــك مغــرمٌ فعلــى هــواكِ لــــهُ علَّــى دلائــلُ
لــــونٌ كَســـته صـــفرةٌ، ومـــدامع هَطلــت سحائبها،وجســمٌ ناحــلُ(٤)

أما ابن حمديس فقد أولع بإضفاء الطابع الإنساني على الدمــع فجعله الناطق بشكواه بعد أن صمت اللسان،وبذلك حمله دور الإعلان متجاوزاً

(١) المغرب في حلى المغرب:ج ١/ص ٢٤٨.*هو أبو بكر محمد بن مرتين احد قواد المعتمد بن عباد وقد استوزره الظافر بن المعتمد أثناء ولايته على قرطبة.
(٢) الظرف والظرفاء/٣٨،وينظر:الحب عند العرب/٢٤.
(٣) ينظر: الفروق في اللغة/٣٠٨.
(٤) ديوان المعتمد بن عباد/٢٣،وينظر:ديوان ابن الحداد/٢٢٢.

الدلالة العاطفية التي اقترن بها فاضطلع في نصه بمهمة ايصالية ، بقــوله :

الــدّمعُ يَنطــقُ واللســانُ صَــمُوتُ ... فانظر إلــى الحركــات كيــفَ تمــوتُ
مازالَ يَظهرُ كــلَّ يــومٍ بــي ضَــنىً ... فلذاكَ عَــنْ عَــينِ الحِمــام خفيــتُ
صَبٌّ يطالِــبُ فــي صــبابةِ نفسِــه ... جَسَداً بمديةِ سَقْمُــه مــنحوتُ.[1]

نجد الشاعر يصف حاله بصورة غاية في الايضاح ،فهو عاجز عن الحراك بل حتى ابسط الحركات تصعب عليه فهذا اللسان الذي عادة لا ينفك يتكلم نجده في حالة العاشق صموت لذا أخذ الدمــع مكانه للتعبير عن حالته ليس هذا فحسب بل نجده يبالغ في وصف حالته ، فعــين الموت لا تراه لأنه في نحول مستمر وهو يبحث عن نفسه المفقودة في عالم العشق، وعن جسده الذي نحتته مدية السقم والمرض كل ذلك يشكوه دمعــه ليرقق قلب محبوبه.

ثالثاً: الاستعطاف:

مثل الفراق تحديا ًلم يقوَ الشاعر الأندلسي على مواجهته لرقة إحساسه،ورهافة حسه لذا كان الاستعطاف ملاذه من ألمه، وحاضراً في تعبيره عن تجارب حب جلبت لــه الشقاء كما جعل الدمــع شفيعاً لدى محبوبه،ودليلاًعلى صدق مشاعر حب،وعلاقة وفاء لم يحد عنها قلب الشاعر العاشق،ومن تلك النصوص التي وظف الشاعر فيها الدمــوع لترقيق فؤاد حبيب جفاه وروعه بتقلب حاله قول ابن حمديس:

بك يا صبورَ القلــبِ هــامَ جَزُوعُــهُ ... أوَكــلُّ شــيءٍ مــن هَــواكَ يروعــهُ
فإذا وصلتَ خشــيتُ منــك قطيعــةً ... فــالعيشُ أنــتَ وصُــوله وقطُوعــهُ
لا تَتهِمنــي فــي الوفــاءِ فــإنني ... كتمــتُ ســرك والــدموعُ تذيعــهُ
نقل الهوى قلبي إلى عينــي التــي ... منهــا تفجّــرَ بالبــكا يَنْبُــوعهُ
أبكيتنــي فأذعــتُ سِــركَ مــكُرَهاً ... فعــلام تَعــذلني وأنــتَ تذيعــهُ.[1]

(١) ديوان ابن حمديس/٩٣.

نلاحظ أن البعد الجمالي للنص تحقق في لفظة (أنت) وحالة العشق التي مثلها دمــع الشاعر وبكائه الذي جعله معادلاً موضوعياً عنه فإذا كانت عيونه ينبوعاً تفجر بالبكاء فلم يكن ذلك إلا ليستعطف بها محبوبه بعتاب ولوعة مستعيناً بالتكرار وما يؤديه من وظيفة إيصاليه للمعنى واستثارته للمتلقي.

كما أن حاجة الشاعر للاستعطاف إنما تغدو حاجة ملحة تزداد بازدياد اضطرابه النفسي الناجم من شعوره بالضعف فانبرى في تصوير مشاعره، ووصف حاله مستعطفاً بالبكاء مستثيراً متلقيه بصيغة الاستفهام المجازي وما يضفيه على النص من روح التواصل ، يقول ابن الحداد:

فكــم أبكـــي عليـــك دمـــاً ولا تَــــــــرثينَ للبــــــــاكي!
فهـــل تَـــدْرِيْن مـــا تَقضـــي علـــى عَيْنَـــيَّ عَينـــاكِ؟[2]

والشاعر المبدع هو من يشركنا في مشاعره وأفكاره بعد صياغتها فنياً ومن ثم يجعلنا نشاطره إحساسه ومدركاته،ونمنحه تعاطفنا وهو يحاور ليعرض معاناته لجفاء المحبوب ، يقول ابن زيدون:

أأُجفى بلا جُرْم،وَأُقصـى بـلا ذنـبِ سوى أنّني مْحضُ الهوى صادقُ الحبِ؟
أُغاديكَ بالشكوى،فأُضحي على القِلى وَأرجـــوك للعُتبَـــى فـــأظفَرُ بالعتـــبِ
فَديتكَ، ما للماء عذباً على الصــدى وَان سُمتني خســفاً،محُلّكَ مــن قلبــي
ولولاك ما ضــاقت حشــايَ صــبابةً جَعلتُ قِرَاها الدّمع سكباً على سكبِ.(٣)

نلحظ في النص أن الشاعر أفاد من صيغة الاستفهام لإقرار حقيقة مشاعره،وإيصالها إلى الآخــر فتسأله هنا سواء أكان موجهاً إلى

---

(١) ديوان ابن حمديس/٢٩٢.
(٢) ديوان ابن الحداد/٢٤١.
(٣) ديوان ابن زيدون/٥٨.

الغـــير أم إلى الذات فهو لم يكن إلا مفتاحاً لكوامن نفسه التي ترجو وتستعطف وقد بدأ الشاعر بالافصاح عنها شيئاً فشيئاً حتى وصل ذروته حين جعل من دمــعه قرى لصبابته،وبذلك يبلغ الاستعطاف ذروته في تشبيه لم نجده عند غيره.

وتفرض حالة الاستعطاف ولا سيما استعطاف المحب لمحبوبه ترقيق القول، وإعلان الذل وبذل الحجة،وهذا ما وظفه ابن اللبانة في قوله:

سـنانُ وردِ جمالــه فــي خــده غــضّ ونــرجسُ مقلتيــه ذابــلُ

كرمت عليه لواحظي بـدِمُوعها ذلــاً وهــو العزيــزُ الباخــلُ

وكأنما هي في السماحةِ طيــىء وكأنما هو فــي الســماحة وابــلُ.[1]

نجد أن الصورة التشــبيهية هنا وظــفت لإبراز القــيمة التأثيرية للدمــع، فالتشبيه يجمع بيــن((صفات ثلاثــة:هي المبالغــة، والبيان، والإيجــاز))[2] وذلك من خلال تقريبه بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة مشتركة،وهي هنا تمثلت بغزارة دمــوعه وبيانها عن حالته، وإيجازه لمراده .

ومن سبل الاستعطاف التي أتخذها الشاعر فضلاً عن ترقيق القول وإظهار التوجع كان تأكيده ترخيص دمعــه الغالي الذي قدم وصفه باللؤلؤ والعلق ،وتلك بلا شك ألتفاتة لطيفة إذ أن رقة الشاعر الأندلسي ،وولعه بمن أحب لا يعني ابتذال دمعـــه،ولكن الدموع الغالية هي خير ما تستعطف بها الحبيبة، يقول ابن خفاجة:

هُنَيد أوجَعتِ قَــلباً قد أقمتِ بـــهِ ما بالُ طَرفي، ومــا يــدريكِ،يَبكيكِ*

(١) ديوان ابن اللبانة/١١٣.

(٢) المثل السائر/ج ٢/ص١٢٣.

فرُب لُؤلؤِ دَمـــع كنــتُ أذخَــرُهُ علقاً أُغالي بــهِ،أرخَصُتهُ فـــيكِ[1]

كما وقد تدفع هيمنت روح الحزن بالشاعر إلى مناداة باعث ألمه ليكشف عن قلب مثقل بشوق جعل من غزارة الدمع وحرارته وصدق انبعاثه سبيلا إلى تمني الرضى والفوز بالمراد إذ وجد الشاعر في هذا الحوار تنفيساً وتعبيراً عن حالته النفسية وسبيلا ً لإيصال إحساسه إلى المتلقي عله يفوز باستعطافه،يقول المعتمد أبن عباد:

أغائبةَ الشَّـخص عـن نـاظري وحاضــرة ً فــي صــميم الفـــؤادِ
عليكِ ســـلامٌ بقـدر الشـجونِ ودمــــعِ الشـؤونِ وقــدر السُّــهادِ
تملكــتِ مّنـــي صــعبَ المَــرام وصــــادَفتُ ودّى ســـهلَ القيـــادِ
مُرادى لُقيــاك فــي كــلّ حــينٍ فيا ليــتَ أنّـــىَ أُعطـــى مُــرُادى.[2]

(١) ديوان ابن خفاجة/٣٧٥.*هنيد:تصغير هند،والعلق :النفيس من كل شيء.

(٢) ديوان المعتمد بن عباد/٨.

وختاماً لما تقدم نستطيع القول :

- إن الشاعر تمكن من إخراج التجربة العاطفية الضيقة بهذا المستوى الفني والعلاقات الجمالية بين الصور على الرغم من الطابع الحزين لها، يعينه على ذلك سيطرة الأحداث على وجدانه، وثراء عالمه الداخلي، وسعة خياله، ورقة مشاعره.
- لأن الدموع أصدق وسيلة للتعبير عن مشاعر الحب فقد اتسقت مع الألفاظ العذبة الرقيقة المناسبة للبواعث التي جسدتها.
- اظهر البحث بوضوح شيوع الكسر للقافية دلالة على انكسار روح الشاعر، وإظهاراً لحالة الضعف التي تعتريه قبل ،وفي أثناء، وبعد فراق أحبته.
- برز توظيف اللون، وعدم إغفال اثر الطبيعة الاندليسة التي استحضرها الشاعر في تصوير دموعه،فكانت الأمطار والريح والبرق فضلا عن الخضرة والورد حاضرة بحسب ما يتناسب ومقتضى الحال للتعبير عن هواجس الشاعر وآلامه.
- من الشعراء من تميز بتشخيصه للدمع ليكون حاضراً وشفيعاً له لدى المحبوب.
- ولا يخفى على القارئ أمر سهولة وعذوبة الألفاظ التي استعملها الشاعر الأندلسي فهو فضلا عن تأثـره بالطبيعة الأندلسية والاجتماعية المتميزة بالرقة والعاطفة الجياشة كان يعبر عن أرق موضوع ممكن أن يدغدغ مشاعر الإنسان في أي مكان وزمان ألا وهو الحب والعشق، وما ينتج عنه من ترقيق مشاعر أقوى الأقوياء فكيف إذا كان ذلك الإنسان هو أندلسي أولاً وشاعر ثانياً؛لابد أن تكون النتيجة رقة وسلاسة تدخل قلب المتلقي من دون ابتذال أو إسراف في إيصال مشاعره إلى الطرف الآخر عبر السنين الطوال

سواء أكان ذلك الطرف الحبيبة المعنية بتلك الأشعار أم المتلقي القارئ المتذوق للإشعار الجميلة المشاعر الصادقة الإحساس.

- ❖ إن الشاعر الأندلسي وان كانت دمــوعه واحدة عند بعد حبيبته عنه إلا أنها اتخذت اشكالاً وصوراً فتارة تأخذ هذه الدموع مسار الشكوى وتارة أخرى للاستعطاف هذا فضلاًعن تدفقها لحظة وداع الحبيبة دلالة على انهيار كل القوى التي يمتلكها الرجل عادة أمام إحساسه بفقدان العاطفة والحنان التي تمتلكها المرأة(الحبيبة) تحديداً.

المصادر والمراجع

١. أســس علم النفس العام، د.أنور الشرقاوي، د.طلعت منصور، د.فاروق أبو عوف،د.عادل عز الدين، مكتبة الانجلو- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

٢. بواعث البكاء ودلالاتـــه الفنية والموضوعية في الشعر العربي قبل الإسلام،سمير جعفر الدوري- رسالة ماجستير- كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٩٨م.

٣. التحليل النفسي للذات العربية أنماطها السلوكية والأسطورية، د.علي زيغور،دار الطليعة- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

٤. الحب عند العرب دراسة أدبية تأريخية،إعداد المكتب العلمي للبحوث – منشورات مكتبة الحياة- بيروت(د.ت).

٥. الحب في الأندلس ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية،جودت مدلج ،دار لسان العرب- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٦. الدلالة الزمنية في الجملة العربية،د.علي جابر المنصوري،مطبعة الجامعة – بغداد- الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

٧. ديوان ابن الحداد الأندلسي(ت ٤٨٠هـــ)،جمعه،وحققه وشرحه وقدم له، الدكتور يوسف الطويل،دار الكتب العلمية- بيروت- (د.ت).

٨. ديوان ابن حمديس، تعليق،د.يوسف عيد، دار الفكر العربي- بيروت- الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٩. ديوان ابن خفاجة،شرح، دكتور يوسف شكري فرحات،دار الجيل – بيروت- (د.ت).

١٠. ديوان ابن زيدون،شرح وتحقيق،كرم البستاني- دار صادر- بيروت – الطبعة الثالثة٢٠٠٣م.

١١. ديوان ابن اللبانة الداني،جمع وتحقيق،د. محمد مجيد السعيد،دار الرآية للنشر والتوزيع عمان- الطبعة الثانية ٢٠٠٨م.
١٢. ديوان المعتمد بن عباد،جمعه وحققه، د.حامد عبدالمجيد، د.احمد بدوي، راجعه ،د.طه حسين، الطبعة الرابعة، مطبعة دار الكتب والوثائق – القاهرة-٢٠٠٢م.
١٣. زهر الآداب وثمر الألباب ،أبو إسحاق الحصري، تحقيق،علي محمد الباوي- مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة ١٩٥٣م.
١٤. شعر ابن السيد البطليوسي ،جمع وتوثيق ودراسة،د.رجب عبد الجواد إبراهيم،مكتبة الآداب – القاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
١٥. طوق الحمامة في الألفة والالآف، الإمام أبي محمد علي بن احمد بن سعيد ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)،ضبطه ووضع حواشيه وقدم له،احمد شمس الدين دار الكتب العلمية- بيروت-الطبعة الخامسة٢٠٠٨م.
١٦. الظرف والظرفاء، أبوالطيب محمد إسحاق بن يحيى الوشاء (ت ٣٢٥هـ) عالم الكتب- بيروت- الطبعة الأولى-١٩٧٧م.
١٧. الفروق في اللغة، أبي هلال العسكري، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٧٣م.
١٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:ضياء الدين بن الأثير ،قدمه وحققه وعلق عليه،د. احمد الحوفي، ود. بدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر- ومطبعتها- القاهرة(د.ت)
١٩. مدامع العشاق ،زكي مبارك،منشورات المكتبة المصرية،الطبعة الثانية ١٣٥٣هـ.
٢٠. المرأة في الشعر الجاهلي،د.علي هاشم ،مطبعة المعارف- بغداد ١٩٦٠م.

٢١. المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه، د.شوقي ضيف- دار المعارف- القاهرة- الطبعة الرابعة ١٩٩٣م.
٢٢. مدخل إلى بنية اللغة الشعرية،د.علوي الهاشمي،مجلة البيان الكويتية،ع (٨٤) سنة١٩٨٩.

TEARS in the poetry of love in Andalusia

DR.BUShra A.ttiya
Instructor
BAGHDAD UNIVERSITY
College of Agriculture

- ***Abstract***
- The research study concerns the tears in the poetry of love in Andalusia has been prying analysis of poetic texts which employed the poet of the word tears and on its behalf of crying and sadness.
- Been searching employing these words in the pictures of poetry that depended on tears to express their sense of the poet lover and his emotional and stand on styles of expression that emerged in this subject and the research found the most important of the results of several
- Creativity of the poet in employing these words in the love poetry to express his sincere and sense delicate rather than parting loved and complaint abandoned and than beg the beloved
- .Emerged as styles expression adopted by the poet to express his psychological state the most important is question and repetition and dialogue and diagnosis of tears
- .appearance rhyme broken in that notice which expressed the loving tears of the poet


